« النثر الفني في القرن الرابع » .

ثم توالت وتكاثرت الدراسات الأدبية القائمـــة على « المنهج التاريخي » على أيدي الكثيرين من الأدباء ومن أساتذة الأدب في الجامعات العربية .

*

(٣) **المنهج النفسي :**

الأدب ترجمان العقل والنفس ، والأديب في كلّ ما يَصدرُ عنه من نشاط أدبيّ يستوحي ويستلهم تجاربَه العقليةَ والنفسيةَ ، ولهذا فالأدبُ بعبـــارة أخرى مرآةُ عقل الأديب ونفسِه .

وإذن فالعنصرُ النفسيُّ أصيلٌ في « العمـــل الأدبي » ودورُه بارزٌ في كل مراحله . وإذا كان في مقدور « المنهج الفني » أن يفسّر لنـا القيَم الشعوريةَ والتعبيريةَ الكامنة في « العملِ الادبي » بحيث نستطيع أن نحكمَ عليه فنياً ، وأن ندركَ الخصائص الشعوريةَ والتعبيرية لصاحبه ، فإن جزءاً من هذا الإدراك وذلك التفسير تتدخل فيه « الملاحظةُ النفسيةُ » التي هي أشملُ كثيراً من « علم النفس » .

والملاحظةُ النفسيهُ لا تقف في النقد عند دورهـــا الضّمنيّ في « المنهج الفني » ، وإنما هي تتجاوز ذلك إلى مجالهـا الخاص الذي تـكاد تنفرد بـه في بعض الأحيان .

و « المنهج النفسي » هو محاولةٌ لتفسير الأدب على أساس نفسيّ ، وتجـدر الإشارة من البدء إلى أن علماء النفس أو التحليل النفسي لم يقصِدوا أولاً إلى إيجاد « منهج نفسي » للنقد الأدبي ، وكلُّ ما كان منهم أنهم « رأوا أن العملَ الفنيّ صورةٌ من صور التعبير عن النفس » وعلى هذا الأساس درسوه حتى لا يَدّعُوا ثغرةً في بناء مذهبهم .

أما الذين عملوا على إيجاد هذا المذهب فهم فريقٌ من نقاد الأدب أرادوا أن ينتفعوا بما توصلتْ إليه الدراساتُ النفسيةُ في تفسير بعض الظواهر الأدبية .

ولعلم النفس أنصارُه المتحمسون له والذين يحاولون أن يفرضوه فرضاً على الدراسات الأدبية والنقدية ، ولكنْ هناك بجانب هؤلاء المتحمسين مَن يميلون إلى الحذر والقصد في استخدامه في « المنهج النفسي » حتى يظل في حدوده المأمونة ، فيساعدَ مجردَ مساعدة على توسيع الآفاق في النظر إلى العمل الفني .

وهؤلاء الحذرون أو المعتدلون يخشَوْنمن أن التوسع في استخدام علم النفس قد ينتهي بالنقد الأدبي إلى نوع من التحليل النفسي ، وبالأدب إلى الاختناق إ ذلك أن العمل الأدبي الرديء كالعمل الجيد من ناحية الدلالة النفسية ، كلاهما صالحٌ للاستشهاد به .

وهذا يعني أن النقد الأدبي إذا استحال إلى نوع من الدراسات التحليلية النفسية ، فإن هذا يؤدي إلى اختفاء القيم الفنية في ثنايا التحليلات النفسية .

وقد حدث شيءٌ شبيهٌ بهذا في البحوث البلاغية بعد عبد القاهر الجرجاني، فقد كان المتبعُ إلى أيامه أن تختلطَ قواعدُ البلاغة بالنقد الأدبي ،وأن يُستشهدَ على القواعد البلاغية بالنصوص ، ثم تُنقدَ هذه النصوص نقداً فنياً يُبيِّن ما فيها من جمال وقبح ، وهذا هو المنهج الصحيح .

ولكنّ البلاغة بعد ذلك انفصلت عن النقد واستوتْ علماً قائماً بذاته على يد أبي يعقوب السكاكي ومدرسته ، وبذلك صارت القاعدةُ مدارَ الاهتمام وموضعَ العناية .

ولما كانت القاعدةُ تثبت بالمثال الجيد كما تثبت بالمثال الرديء فإن كتبَ البلاغة قد تحولت عند المتأخرين إلى معرض لأرديء ما في الأدب من نماذج ،

وهي إنْ علّمت قواعد البلاغة فإنها قلما تخلق البليغ ! وبذلك انحطت بالذوق الأدبي بدل أن ترقى به !

ولهذا يخشى الحذِرون أن يحدث مثلُ هذا الموقف في الدراسات النفسية ، فينسى النقادُ أن وظيفةَ النقد الأدبي هي تقديرُ العمل الأدبي وصاحبِه من الناحية الفنية ، ويندفعوا في تطبيقات وتحليلات يستوي فيها دلالةُ النصّ الجيد ودلالةُ النص الرديء ...

ومن الممكن أن يكون « علم النفس » معيناً للناقـــد إذا عرَف حدودَ استخدامه في مجال النقد . والحدودُ المأمونة في ذلك أن يكون « المنهـــج النفسي » أوسعَ من علم النفس ، وأن يظلّ مع هذا مساعداً للمنهج الفني والمنهج التاريخي ، وأن يقف عند حدود الظن والترجيح ، وأن يتجنب الجزم والقطع .

*

والآن وبعد هذه المقدمة نتتبع نشأةَ « المنهج النفسي » ونموّه وأطوارَه في الأدب العربي قديماً وحديثاً ، كما فعلنا من قبـــل بالنسبة للمنهج الفني والمنهج التـــاريخي .

وأولُ شيء تجدر الإشارة إليه هنا هو أن النزعـــةَ النفسيةَ في فهم الأدب العربي ونقدِه ليست نزعةً قديمة ، وإنما هي نزعة غربيّةٌ تسرّبتْ إلينـــا في العصر الحديث ، وأن الأدب العربي لم يعرفها من قبل .

وإلى هذا الحد يجب التمييز بين أمرين : بـــين استخدام علم النفس في فهم الأدب ونقده وبين الملاحظات النفسية .

فاستخدامُ « علم النفس » بنظرياته وقوانينه وطرقه الخاصـــة في فهم الأدب ونقده أمرٌ مُستحدَثٌ ، لا أصولَ له في ثقافتنا العربية الأدبية . ومَن حاولوا منا تطبيقَه على أدبنا قد استمدوه من الغرب الذي نمتْ فيه الدراساتُ النفسية